الدَراميون الدَشوريون الكلدان الكنعانيون العرب

الألف الأول قبل الميلاد

أ. د. بشار محمد خليف
باحث في تاريخ العالم العربي
خبير دراسات حضارة المشرق العربي القديم
دمشق - الجمهورية العربية السورية

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
بشار خليف ، الآراميون – الآشوريون – الكلدان – الكنعانيون – العرب: الألف الأول قبل الميلاد.- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٣٦ – ٤٣. (www.historicalkan.co.nr)

مقدمة

مع حلول الألف الأول قبل الميلاد أصبحنا أمام حالة من التنوع الديمغرافي ذو المنشأ الواحد في المشرق العربي. هنا بدأنا نتلمس بقوة مكامن التفاعل القوي بين الأرومات الاجتماعية ، سلباً وإيجاباً. إن كان لجهة الحروب وصراعات المصالح المدينية ، أو لجهة التفاعل الثقافي – الديمغرافي. حتى أصبحنا وباطراد مع الزمن أمام ظروف مهيئة لبداءة التعريب في عالم المشرق العربي. ففي الساحل المشرقي نجد أن الكنعانيين بممالكهم العديدة يشكلون الرافعة التجارية البحرية للعمق الشامي والرافدي. وفي الداخل نجد الفاعلية الآرامية أخذة بالتطور والتبلور. أما في الرافدين ، فنجد انبثاق الفاعلية الكلدانية /الآرامية ، في الجنوب وانتشارها على مدى المشرق العربي بالإضافة إلى الفاعلية الآشورية القوية. ووسط كل هذا التمازج والتفاعل نجد أن الحضور العربي ،الناتج عن حركة الجولان في المنطقة الممتدة من الفرات إلى شبه الجزيرة العربية آخذ بالازدياد وبتأكيد حضوره.

ولعل توصيفنا هذا ، الآرامي – الكلداني – الآشوري – الكنعاني الساحلي – العربي لا يأخذ سوى بعدًا واحدًا ، وفق الحالة السياسية السائدة آنذاك ، ولا يعبر سوى عن أرومات ذات منشأ واحد ، كانت تجول في المنطقة التي تحدثنا عنها ، وارتأت أن تستقر في الأقاليم التي تقدم بيئاتها ممكنات طبيعية وحياتية تساعد على العيش والتطور ، وهذا ما تبدى جليًا في المشرق العربي. لذا فإن توصيفنا للآراميين وغيرهم هو توصيف ثقافي نتج عن تفاعل هذه الأرومة مع البيئة الطبيعية التي صارت فيها ، كما والتفاعل مع البيئة الاجتماعية التي كانت سائدة ، بحيث غدا التمازج والتفاعل عامل الحضارة الأساسي في المشرق العربي في الألف الأول قبل الميلاد كما في قبله من الألفيات.

وهنا ، سوف نستعرض باقتضاب الفاعلية التاريخية لكل أرومة ومبلغ التفاعلات والتمازجات فيما بينها ، والتي أوصلتنا إلى عالم الألف الأول الذي يشكل لبنة أساسية من لبنات الثقافة التي سادت إلى اليوم ، ثم سنناقش فكرة الألوهة التي سادت في هذه الألفية والتي أسست للعالم الاعتقادي والديني في الألف الأول الميلادي ، حتى ظهور الرسالات السماوية.

١- الآراميون

إذا كان تاريخ تواجد الآراميين في الهلال الخصيب قد تم الاتفاق عليه وفق المعطيات الأركيولوجية على أنه يعود إلى حوالي ١٤٠٠ ق.م في بداءته ، ومن ثَم في فاعليته بدءًا من مطلع الألف الأول عبر تأسيس الممالك الآرامية فإن الوثائق والنصوص تعيد ذكر الآراميين إلى الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد. فقد ورد في نقش يعود لنارام – سين الأكدي ، اسم آرام أو الآراميين ، حيث كان تواجدهم في الجزء الأعلى من الجناح الرافدي [١] ، ويعتبر هذا أول ذكر للآراميين في الوثائق حتى الآن.

كما ورد ذكر الآراميين أيضًا في وثائق ترجع إلى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد ،حيث تقدم معطيات عن وجود مدينة ! أو تجمع آرامي قرب مدينة أشنونا الرافدية. وبعد هذا التاريخ بعدة سنوات يظهر الاسم أيضاً في نص جديد ،على شكل " آرام " ، اسم علم لشخص. كما حوت وثائق مملكة ماري على معطيات تؤكد وجود الآراميين. وفي انتقال إلى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد وبداية الألف الأول قبل الميلاد نجد ذكرهم في وثائق الملك الآشوري أرك – دين – ايل ، حيث يتحدث عن

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

انتصاراته على جماعات " الأخلامو". وتتضح الصورة أكثر مع عصر الملك الآشوري تجلات فلاصر الأول ، حيث تذكر نصوصه أنه هزم الأخلامو ، الآراميين ، الذين جاؤوا من البادية مغيرين على ضفاف الفرات ووردت بهذا النص (احلامي — ارمايا). ويبدو أنهم كانوا على حالة شبه بدوية ، حيث كانوا يتجولون في المنطقة الواسعة الممتدة غرب الفرات الأوسط وحتى تدمر.[٢]

ومع مطلع الألف الأول أصبحنا أمام فاعلية آرامية في وقت بقيت مدن الساحل السوري في فاعليتها الكنعانية الساحلية ، ولعبت مدينة صور دورًا رائدًا في هذا الوقت بالإضافة إلى صيدا وجبيل حيث توارثوا الدور الأجاريتي السابق. أما الداخل الشامي ، فقد تركزت القوة السياسية فيه ، في دمشق وفي حماة وسط سوريا ونشأت عدد من الممالك مثل آرام صوبا على مجرى العاصي الأعلى ، حيث توسعت خلف جبال الشرقية حتى بادية الشام.[*] وكذلك بيت ريحوب على مجرى نهر الأردن الأعلى ، وحماة ، وبيت آجوشي وبَتين في منطقة العاصي الأدنى ، وشمأل ، وكركميش وبيت عديني حيث ضمت مناطق تقع شرق الفرات ، وبيت بخياني. وبعد انطفاء فاعلية آرام صوبا ، حلت آرام دمشق محلها وأقامت تحالفاً مع آرام حماة لصد الآشوريين.

الجدير ذكره هنا ، هو أنه في القرن الحادي عشر ق.م استولى / حدد — ايل — ادن / الآرامي على عرش بابل. وتشير المعطيات التاريخية إلى أن التواجد الآرامي الذي كان قليلاً وبدئياً منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ،ثم عبر حركة جولان القبائل في فضاء المشرق العربي والجزيرة العربية يبدو أن القبائل المرتحلة قد طاب لها المقام في البادية الشامية وصولاً إلى الفرات والرافدين. "وقد ثبت لنا من الكتابات المسمارية التي ترجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد أن أناساً من بطون سوتي الآرامية استقروا في نواحي دمشق ،وأن قبائل أخلامية من العنصر الآرامي استوطنت مناطق جنوب الفرات بالقرب من الخليج العربي".[٣]

وتميزت الفاعلية الآرامية بالنشاط التجاري حيث يشير بريستد إلى أنهم قبضوا على تجارة آسيا الصغرى.[٤] وعلى هدي المشرق العربي بأروماته المشرقية المختلفة ذات المنشأ الواحد نلاحظ أن الآراميين بممالكهم لم يتوحدوا في دولة سياسية واحدة ،بل بقوا على شكل ممالك — مدن تتحالف مع بعضها البعض وقت التهديد والحرب ، وربطت بينها علاقات مصالح مدينية تجارية ، ما يشير إلى سلالات قبلية حاكمة حكمت المدن الآرامية.

وفي مجال الكتابة واللغة استعمل الآراميون الحروف الهجائية الكنعانية ثم نافست الحروف الهجائية الآرامية ، الكنعانية ذات العلامات المسمارية وذلك بدءاً من القرن الثامن قبل الميلاد ولاسيما في بلاد آشور. بحيث تناقص استخدام الكتابات المسمارية في الألف الأول قبل الميلاد. ويشير جيمس بريستد إلى أن التاجر الآرامي كان كلما وصله نص مكتوب بالآشورية المسمارية فإنه سرعان ما يتناول قلمه ويعلق عليه بالآرامية ما شاء من تعليق.[٥] وشيئاً فشيئاً ، أصبحت اللغة الآرامية لغة الهلال الخصيب بكامله ثم اللغة الرسمية للعالم القديم شرق المشرق العربي.

وتشير الأبحاث إلى أن الخط العربي هو الآخر مشتق من أحد أنماط الخط الآرامي المتصل.[٦] وقد أصبح للغة الآرامية لهجات عديدة مثل الآرامية القديمة والآرامية الرسمية / آرامية الدولة / والآرامية النبطية والمنداعية. الجدير ذكره ؛ أن اللغة الآرامية تعتبر ابنة عم اللغة العربية كما الآراميون المعتبرون أبناء عم العرب وكذلك السريان /وهم الآراميون الذين أصبحوا مسيحيين/ هم أبناء عم العرب أيضاً.[*] فعبر الممالك القديمة المشرقية منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد وحتى ٦٩ ق.م /زمن الاحتلال الروماني/ أي من كيش وأكد وماري وبابل وآشور والممالك الآرامية في بلاد الشام وممالك شمال شبه الجزيرة العربية ومدنها في الوسط من شبه الجزيرة العربية التي تأسست قبل الفتح الإسلامي ، كان ثمرة هذه الفترة انتشار الكتابة على نطاق واسع وفق أصول وقواعد ثابتة. وأُوجدت الحروف الهجائية والأبجدية وسادت اللغة الآرامية لما كان بينها وبين اللهجات السابقة والمعاصرة من تطابق وتوافق ولأنها كانت تكتب بالحروف.

وثمة ثمرة أخرى ، هي وحدة الخط التي حققتها الآرامية عقب التخبط بين الخط المسماري المقطعي الهجائي والخط المسماري الأبجدي. إذ منذ بداية التاريخ الميلادي تقريباً نلحظ خطاً واحداً هو النبطي / الآرامي الذي انبثق عنه الخط العربي[*] [٧]. وبالعودة إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد تشير المعطيات إلى سيطرة الآراميين على مناطق واسعة من البادية السورية وطرق قوافلها.[٨]

نصل من كل هذا إلى أن الثقافة الآرامية استطاعت أن تكون الوريث الحقيقي لحضارة المشرق العربي ، الأكدية - الكنعانية — العمورية ، لا بل واستطاعت عبر لغتها من أن تشكل سد حماية ضد اللغات الدخيلة واستطاعت تسليم اللسان المشرقي والخط المشرقي إلى اللغة العربية وإلى الخط العربي بعد أن أسهمت في هذا التسليم. يقول الدكتور محفل: "لقد صمدت الآرامية ، أمام لغات الدخلاء من فرس وإغريق ورومان وبيزنطيين وصانت الوحدة اللغوية للعالم العربي خلال اثني عشر قرناً تقريباً / من سقوط الدولة البابلية الحديثة / الكلدانية ، ٥٣٩ ق.م وحتى عصر الفتوحات الإسلامية".

وفي مجال الكتابة يشير الباحث المذكور إلى أن الكتابة العربية هي حصيلة تطور مديد ومستمر انطلاقاً من الكتابة المسمارية المقطعية الرافدية (نحو ٣٢٠٠ ق.م) والهيروغليفية الصورية المصرية التي ظهرت مع المسمارية في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد ومروراً بالكتابة المسمارية الأبجدية في أجاريت نحو ١٤٠٠ ق.م وانتهاء

* مع مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد تأسست ممالك آرامية في الهلال الخصيب ، فنجد في الجناح الرافدي تأسيس مملكة آرامية في بابل وتأسيس ممالك إلى الجنوب منها. وحفلت منطقة الجزيرة السورية بتواجد آرامي لهم ، بحيث امتد على ضفاف الفرات من مدينة كركميش شمالاً إلى عانا جنوباً. كما نلحظ انتشاراً آرامياً في بلاد الشام الداخلية من جبال طوروس حتى نهر الزرقاء بالأردن.

* يشير الدكتور محمد محفل إلى أن اللغة الآرامية مهدت السبيل لعربيتنا الفصحى ، شقيقتها والقريبة منها. انظر- العربية: لغة وكتابة.- دورية كان التاريخية.- العدد السابع ؛ مارس ٢٠١٠. ص ٤١ — ٤٥.

* نقل الآراميون قلمهم من معاصريهم الساحليين الكنعانيين وبه كتبوا نصوصهم الأولى (من القرن العاشر إلى القرن السابع ق.م) وإن كتابة ولغة تلك النصوص تشبه إلى درجة كبيرة محتويات النصوص الكنعانية المعاصرة لها. وراح الآراميون يطورون بدءًا من القرن السادس ق.م كتابة خاصة بهم قبل أن يتفرع عنها منذ القرن الثالث ق.م كتابات آرامية محلية في مختلف أصقاع المشرق العربي. د محفل — مرجع سابق.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

بالأبجدية الكنعانية المتطورة حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد.[٩]

وقد أصبحت " الآرامية الإمبراطورية " اللغة السائدة في مختلف أصقاع العالم العربي القديم في العصر الفارسي الأخميني (٥٥٠ – ٣٣١ ق.م) بعد تغلبها على ما سبقها من لهجات شقيقة / بابلية وآشورية / وكنعانية بل ومصرية ، وذلك لأسباب عديدة منها سهولة طريقة كتابتها (المقتبسة أصلاً من أبجدية الساحل الكنعاني) قبل أن يطور الآراميون فيما بعد قلماً خاصاً بهم" ،[١٠] ويشير الدكتور محفل أيضاً إلى فكرة مهمة في أن اللهجات العتيقة من أكدية / بابلية وآشورية / وكنعانية كانت تعتبر بمثابة العتبات الأولى في السلم اللغوي لعالمنا العربي ولا تشكل هذه اللهجات لغات قائمة بذاتها.

بقي أن نشير إلى أن الفاعلية الآرامية الديمغرافية استمرت حتى الألف الأول الميلادي. ومع ظهور الديانة المسيحية أصبحنا أمام الآراميين المسيحيين وهم السريان الذين نجد ذكرهم قبل ومع ظهور الرسالة المحمدية في القرن السابع الميلادي. وذكرنا أن الآراميين امتازوا بعالم التجارة والنشاط التجاري وهذا ما سهل لهم نقل كتابتهم إلى أنحاء عديدة من العالم القديم ، وقد ذكر فيليب حتي أن " انتقال حرف الهجاء الكنعاني شرقاً إلى الآراميين حيث تم نقله عبرهم إلى الفرس وبذا أصبحت الآرامية لغة رسمية عندهم ،كما وأخذه العرب ليكتبوا به لغة القرآن .. ، ثم انتقل إلى شعوب أسيوية أخرى.

وقد حصل الفرس والأرمن والهنود على أبجديتهم من مصادر آرامية.وحروف البهلوية والسنسكريتية هي من أصل آرامي".[١١] ويشير "جورج رو" حول أصل الآراميين فهو يعتقد استدلالاً من لغتهم أن موطنهم الأصلي يعود إلى شبه الجزيرة العربية أو أنهم سكنوا في تلك المنطقة في زمن ما على الأقل. وإن هناك الكثير من الأسباب التي تحملنا على الاعتقاد بأن موطنهم الأصلي كان في الحقيقة من بادية الشام والهلال الخصيب.[*]

٢- الآشوريون

منذ انتهاء فاعلية آشور في الألف الثاني قبل الميلاد مع وفاة شمشي أدد/حدد عام ١٧٨٢ ق.م ، خضعت مدينة آشور للفاعلية البابلية ،وبقيت فاعليتها ضعيفة ومع القرن الرابع عشر نجد أن ملوك آشور بدأوا يستعيدون شيئاً من قوتهم بحيث أخذوا في التصدي للقبائل البدوية – أحلاموآرام – وكان من أبرزهم: (آرك – دين – ايل / ايلو/ من ١٣١٩ – ١٣٠٨ ق.م ، شلما نصر الأول من ١٢٧٤ – ١٢٤٥ ق.م ، تيكولتي نينورتا الأول من ١٢٤٤ – ١٢٠٨ ق.م.) ثم تضعف فاعلية آشور اعتبارًا من ١٢٠٨ ق.م وحتى حوالي ١١١٧ ق.م حيث يعتلي عرش آشور تجلات فلاصر الأول / ١١١٧ – ١٠٧٧ / ق.م لتبدأ مسيرة آشور القوية حيث نجد في القرن الثامن قبل الميلاد ومنذ اعتلاء شاروكين الثاني الحكم في آشور ٧٢٢ – ٧٠٥ ق.م فإن الممالك الآرامية انتهت فاعليتها التاريخية بسلالاتها الحاكمة وأصبحت الممالك الآرامية تدار من قبل حكام أشوريين.

تميزت الثقافة الآشورية في القرن الأول قبل الميلاد بخصائص أصيلة متطورة عن قيم ومعايير الألف الثاني والثالث في المشرق ومستمدة منها الجذور في آن واحد. غير أن صعود نجم بابل من جديد مع ظهور الأمير الكلداني نبوبولصر / ٦٢٦ ق.م / الذي بدأت عبره الفاعلية الكلدانية بدا وكأنه نقطة البدء في تصفية الحساب مع الآشوريين الذين انصرفوا طيلة قرون عديدة لمحاربة الآراميين وإنهاء فاعليتهم السياسية.[١٢] واستطاع هذا الأمير الكلداني من إنهاء فاعلية آشور / التي ضعفت من خلال حربها مع الميديين / عام ٦١٢ ق.م واحتل عاصمتهم نينوى بمشاركة الملك الميدي كي إخسار ، ثم تمددت الفاعلية الكلدانية نحوبلاد الشام كي ترث الفاعلية الآشورية المنهارة هناك.

٣- الكلدانيون

يعود زمن ظهور الفاعلية الكلدانية إلى القرن التاسع قبل الميلاد في جنوب الرافدين حيث أسسوا مملكة مستقلة ملاصقة لبابل على ضفاف نهر الفرات المقابلة لها ، وكانت هذه الفاعلية ديمغرافية أكثر منها فاعلية سياسية. وأول دليل وثائقي يشير إلى هذه الفاعلية الديمغرافية نجده في نصوص الملك الآشوري (آشور ناصر بل الثاني ٨٨٣ – ٨٥٩ ق.م) حيث وردت باسم بلاد "كلدي: Kald Mat".

وحسب وثائق الملك شلما نصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤) ق.م [*] ، نجد أن الكلدانيين كانوا يشكلون عدة مشيخات يطلق على كل واحدة منها لفظة (بيت – Bit) ويبدو أن التنظيم السياسي – الاجتماعي لديهم لم يكن سوى تنظيماً عشائرياً – قبلياً حيث تعود تسمية المشيخات على اسم كبير القوم أو أبرزهم.

وقدمت وثائق هذا الملك أسماء لمشيخات مثل: (بيت داركوري – بين أموكاني – بيت ياكين) وهذه كانت من أكبر المشيخات الكلدانية ، وكانت تقع على ضفة نهر دجلة في أقصى النهاية الجنوبية للرافدين حتى تصل إلى الخليج العربي.[١٣] وإن كان جولان القبائل العربية قد ألقى بها أخيراً في الجنوب الرافدي ، فنحن نعتقد أن أصولها قد تعود إلى الخليج العربي بالمواقع المطلة عليه آنذاك.

غير أن هناك عدة نظريات تصف الكلدانيين بأنهم آراميون ويبدو أن التداخل الديمغرافي في الألف الأول يجعل التصنيف الديمغرافي صعباً إلى حد ما. حتى أن بعض المرويات التاريخية كانت تشمل ذكر الكلدانيين والآراميين والعرب معاً.[**] ويبدو أن الفاعلية الديمغرافية المتزايدة للكلدانيين مع اغتنام واقع حركة التاريخ آنذاك وظروفها السياسية حيث أن الآشوريين ضعف نفوذهم في بابل ما دفع نبوبولصر [***] زعيم القبائل الكلدانية للهجوم على بابل واستيلائه على السلطة فيها معلناً البداية السياسية والتاريخية للفاعلية الكلدانية وذلك في ٦٢٦ ق.م.

---

* انظر جورج رو– العراق القديم – ت: حسين علوان حسين – بغداد ١٩٨٤ – ص٣٦٨.

* تخبرنا وثائق شلما نصر الثالث إلى أنه زحف نحو أرض كلدو فاستولى عليها وتوغل نحو الجنوب حتى بلغ "البحر المالح" أي الخليج العربي. كذلك تخبرنا وثائقه عن انتصاره على تحالف آرامي – عربي / بقيادة جنديبو– إسرائيلي وذلك في عام ٨٥٣ ق.م.

** يلاحظ في كتابات بعض الملوك الآشوريين أنهم يذكرون الآراميين إلى جانب الكلدانيين والعرب.

*** نبو بولصّر وردت في النقوش : (نابو أبال أوصّور = ليحم الإله نبو الابن الوريث). انظر عبد مرعي – تاريخ بلاد الرافدين. ص١٢٥

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

وفي عام ٦١٢ ق.م تسقط نينوى تحت الهجوم الميدي – الكلداني وينسحب الآشوريون إلى حران حيث أعلن أشور أوبليط الثاني نفسه ملكاً على حران غير أن التحالف الكلداني – الميدي أسقط سلطة الأشوريين عام ٦١٠ ق.م ، ويبدو أن هذا الحدث كان الصفحة الأخيرة من الفاعلية الآشورية في الألف الأول قبل الميلاد. ثم توجهت أنظار الكلدانيين إلى بلاد الشام حيث ورثوا الفاعلية الأشورية هناك. وقد سعت الإدارة الكلدانية إلى إحياء بابل من جديد حيث تشير الوثائق إلى بناء أكبر زقورة فيها وهي " برج بابل " "حجر أساس الأرض والسماء ". يبلغ ارتفاع هذا البرج ٩١ متراً يتألف من ثمان طبقات مدرجة وفي الطبقة الأخيرة ثمة معبد صغير مخصص للإله الكبير[١٤].

وتتميز الثقافة الكلدانية بأنها تمثلت وجبت الثقافات المشرقية كافة ، وطورت عدة مفاهيم ولاسيما في مناحي المعتقدات والعلوم والفلك والهندسة والرياضيات والعرافة والسحر. وكون أن الآرامية كانت سائدة فإن انطلاق الفاعلية الكلدانية من بابل جعل الآرامية تنتقل إلى حيز العالمية منذ مطلع القرن الثامن قبل الميلاد. ويشير الدكتور حسن فاضل جواد إلى مدى انتشار الثقافة الكلدانية آنذاك حيث امتد الإشعاع الحضاري الكلداني إلى بلاد الشام وأسيا الصغرى وإلى شبه الجزيرة العربية ولاسيما إلى حضارات المنطقة الشرقية منها مثل حضارة (باربار) وأم النار ومدنها فيلكة ودلمون وملوخا وماجان على الخليج العربي وكذلك على حضارات المنطقة الجنوبية ودولها مثل الدولة المعينية والقتبانية والحميرية والسبئية وغيرها.[١٥]

وفي عام ٥٣٩ ق.م تسقط الفاعلية الكلدانية بعاصمتها بابل تحت هجمات الفرس الأخمينيين[*] لتنتهي صفحة مضيئة من تاريخ المشرق العربي. يجدر الذكر هنا إلى أن زمن الفاعلية التاريخية الكلدانية ترافق مع زمن سطوع الفلسفة عند اليونانيين القدماء.

٤- الكنعانيون الساحليون

يبدو أن المراكز الكنعانية الساحلية على الساحل المشرقي تعافت من هجمات شعوب البحر وهذا ربما يؤكد أن دمار أجاريت لم يكن بسبب هجمات شعوب البحر فقط بل بسبب زلازل أصابت المنطقة برمتها. والذي تبدى هنا هو أن مدينة صور ورثت الفاعلية الاقتصادية – التجارية لأجاريت لا بل والسياسية أيضاً. فقد أصبحت مركزاً للتوسع الاقتصادي في حوض المتوسط الشرقي والأوسط.

وكانت المراكز الكنعانية هذه قد عانت من هجمات الآشوريين وسُجل مساعدتها للآراميين في صد الهجمات الآشورية ولكن ليس بجيش وإنما بمساعدات عينية من ذهب وفضة. كما امتلكت جبيل فاعليتها التجارية أيضاً بالإضافة إلى صيدا ولكن صور بقيت هي المركز الأساسي. وكون أن هذه المراكز تجارية بامتياز عبر امتلاكها الوجه البحري فإنها وتبعاً لإشراطات المدن التجارية كانت تميل إلى إيجاد توازها في صراع الأقوياء إن كان الآشوريين في الشرق أوالمصريين في الغرب ولم تدخل في النسيج التاريخي المتشابك للعمق الشامي وتفاعلاته ورغم هذا فقد أوردت نقوش الملك الكلداني نبوخذ نصر قائمة موظفي بلاطه وتابعيه حيث تذكر في نهايتها ملوك صور وصيدا وأرواد إلى جانب حكام فلسطين المحليين. ما يعني أن المراكز الساحلية الكنعانية خضعت للفاعلية الكلدانية ولاسيما في سنوات حكم نبوخذ نصر الأخيرة أي بعد ٥٧٠ ق.م.[١٦] وبشكل عام كانت علاقات المراكز الساحلية الكنعانية مع العمق الشامي علاقات تجارية واقتصادية ومصلحية.

٥- العرب

ذكرنا سابقًا أن أول ذكر للعرب أو للقبائل العربية حتى الآن يعود إلى ما ذكر من أن شاروكين الأكدي وفي الثلث الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد خرج من تخوم الرافدين واتجه نحو شبه الجزيرة العربية مع ابنه نازان حيث قاتل هناك قبائل عربية يعتقد أنها في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية في ماجان على سواحل عُمان. وفي نص يعود لنارام سين الأكدي ، بعد شاروكين نجد أن نارام سين قد استولى على الأرض المتصلة بأرض بابل والتي سكانها من العرب Aribu-araba.

وتنبغي الإشارة هنا ؛ إلى معطى عام ومهم في مساق العلاقات والاتصالات بين المراكز الحضارية ، حيث أن لوسائل النقل التجاري وغيرها دوراً مهماً في تمتين أواصر تلك الصلات والعلاقات بين المراكز المتباعدة. لهذا فإننا ومنذ ١٨٠٠ ق.م ، نصبح أمام منعطف جديد في تطور وسائل النقل بين المراكز التجارية عبر استخدام الحصان عوضاً عن الحمار ،ثم ومع حلول ١٣٠٠ ق.م سوف يحل الجمل كوسيلة نقل مهمة جداً لحركة جولان القوافل واحتماله للمسافات البعيدة.[*]

إذن عبر استخدام الجمل أصبحنا أمام دفق جديد من الصلات والجولان والعلاقات بين الشمال المشرقي والجنوب العربي. وقد أشارت معطيات تاريخية على أن حملة بدوية قام بها جمالون من الجزيرة العربية إلى سوريا وقد ورد ذكرها في وثائق تعود إلى وقت مبكر من القرن الحادي عشر ق.م. ويشير أرنولد توينبي إلى أن تأنيس الجمل جعل بدو السهوب العربية أشد خطراً على جيرانهم المتحضرين من ذي قبل. إلا أن هذا الانجاز في التأنيس جعل اجتياز السهو ب نفسها أيسر على البشر.

وقد كان أحد آثار هذا الشيء أن انتشر أثر المدينة السورية عبر بلاد العرب إلى المرتفعات الخصبة الواقعة في الزاوية الجنوبية من شبه الجزيرة العربية.[١٧] إذن نحن نجد أن القبائل العربية كانت تقيم في شبه الجزيرة العربية منذ الألف الثالث ق.م ، وكانت هناك حركات جولان وارتحالات تبعاً للشرط البيئي وعبر هذه الحركة كان يمكن لبعض القبائل أن تستقر على أطراف المراكز الحضارية والمدينية والزراعية في المشرق العربي ، لأنها المنطقة الجاذبة بيئياً وحضارياً ومعيشياً ، فالقبائل العربية المرتحلة نحو الشمال لم تأت إلى مشرق فارغ بل كان عامراً بالحضارات والمدن.

وإن شاءت الدراسات أن تشير أوتوحي إلى أنه لولا " الهجرات " لما قامت حضارة مشرقية فإن هذا الإيحاء مغلوط كون أن المشرق العربي

* تشير المعطيات التاريخية إلى أن سقوط بابل كان بسبب خيانة كهنة بابل المردوخيين /نسبة للإله مردوخ/ كون أن نبونيد رفع مقام الإله سين إله القمر بدلاً من مردوخ ،ولتضارب مصالح كهنة مردوخ وتأثرها بذلك فتحوا أبواب بابل للجيش الفارسي وقد ذكرت إحدى الكتابات أن مردوخ إله بابل هو الذي أمر قورش الفارسي بالسير إلى بابل لتخليصها من ملكها نابونيد الذي لم يعبده. انظر عبد مرعي – تاريخ الرافدين ص١٣١.

* تشير الأبحاث إلى أن اسم الجمل ورد في الكتابات الأكدية ب " جملو" أو كملو" ومصدرها بلاد الشام. انظر جواد علي ص ٨٠.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حاضر وفاعل بشرياً وحضارياً منذ عهو د سحيقة. غير أن الكنعانيين مـثلاً وإن افتـرض البـاحثون أنهـم عـرب ، فهـم عـرب ولكـن أصـبحوا كنعانيين بتفاعلهم مع البيئة الجديدة التي استوطنوا فيها في المشرق وهذا ينسحب على معظم الأورمات ذات المنشأ الواحد والأصل الواحد من أكديين وآراميين وعموريين فكلهم كذلك بعد أن تفاعلوا مع بيئة قدمت الممكنات الحضارية ليتميزوا عن القبائل البدوية التي بقيت في بيئة صحراوية لا تحرض على الإبداع والانجاز الحضاري.(*)

يقول الدكتور جواد علي: "الهلال الخصيب من الناحية الطبيعية وحدة لا يمكن فصلها عن جزيرة العرب وهو امتداد طبيعي لها وليست البادية الواسعة التي تملأ باطن الهلال إلا جزءاً من جزيرة العرب وامتداداً لها لا يفصلها عنها فاصل ولا يحد بينها حد وإذا ما انتقلت من بادية الشام إلى بوادي الجزيرة العربية فلا تجد أمامك شيئاً يشعرك بوجود فروق بين طبيعة هذه الأرضين الواسعة أووجود حواجز تمنع سكانها من الهجرة نحوالشمال أوإلى الجنوب".(١٨) إذن نبقى أمام معطى واحد مهم وهو قرب بادية الشام من المراكز الحضارية والمدينية في الهلال الخصيب وهو الذي ميزها عن طبيعة شبه الجزيرة العربية القاحلة والتي تفتقد إلى المراكز الحضرية. وعلى هذا فإن في نمط البداوة أنواع منها البدوية الأولى وشبه البدوية وبدوية مع استقرار مؤقت وهذا ينسجم مع معطيات البيئة والتفاعل.

ويشير رونه دوسوإلى أن " العرب كانوا يتجهو ن دائماً لا إلى غزو الأقاليم الحضرية فقط ، بل إلى الإقامة فيها أيضاً. وليسوا فقط سكان الجزيرة العربية فقط لكنهم أيضاً البدو الذين يجوبون وسط الجزيرة العربية وشمالها وكل بادية الشام. فبادية الشام التي تمتد نحو الشمال حتى نهر الفرات تعد بالضرورة جزءاً من المجال العربي".(١٩) وقد كانت الارتحالات العربية تجري على نظام فصول السنة ، فالقبائل ذات المضارب الكبيرة كانت تقضي الشتاء في جزيرة العرب وخاصة في نجد وفي الربيع كانت تتجه نحو الشمال باحثة عن المراعي فتصل بذلك إلى أطراف الحدود الحضرية. وكان لكل قبيلة مضاربها الصيفية وسط الحضريين أو على مقربة منهم. وكان شيخ القبيلة يرتبط " بعهد الأخوة " مع شيوخ القرى والبلدات.(*)

الجدير ذكره هنا هو ؛ أن مفهوم " بلاد العرب " عند المشرقيين / آشوريين وبابليين / كان يعني بادية الشام وبادية السماوة وهي البادية الواسعة الممتدة من نهر الفرات إلى تخوم الشام ،وقد أطلقوا على القسم الخاضع لنفوذ الفرس في الألف الأول قبل الميلاد اسم " بيت عربايا " ومعناها أرض العرب. ويشير جواد علي بدوره إلى أن بلاد العرب أو" العربية " هي البوادي والفلوات التي أطلق الآشوريون ومن جاء بعدهم لفظة الأعراب وعلى باديتهم Arabae - Arabeae وهي جزيرة العرب وامتدادها الذي يكون بادية الشام حتى نهايتها عند اقتراب الفرات من أرض بلاد الشام ، فالفرات هو حدها الشرقي أما حدها الغربي فأرض الحضر في بلاد الشام وتدخل في العربية بادية فلسطين وطور سيناء إلى شواطئ النيل(*) (٢٠).

ويشير ولفنسون إلى مدلول كلمة العرب (عَرَب ،عُرْب) فهي لم تكن تدل على مدلولها المتعارف عليه الآن بل كانت تطلق على نوع خاص من القبائل وهو النوع الذي يسكن البادية وذلك النوع المتنقل الذي لا يستقر في مكان واحد بل يتبع مساقط الغيث ومنابت الأعشاب. في حين أن ما يقال في معاجم اللغة العربية من أن هناك فرقاً بيم كلمتي عربي وأعرابي وتخصيص الأولى بسكان المدن والثانية بسكان البادية فلم يحدث هذا إلا في عصور قريبة من ظهور الإسلام. أما قبل ذلك فلم يكن هناك فرقٌ مطلقٌ بل كان كل من الكلمتين يدل على سكان البادية فقط.(٢١)

إذن نصل إلى نتيجة مفادها أن للعرب وقبائلهم حضوراً موثق في الألف الثالث في ثلثه الأخير وصعوداً مع الزمن نجد أن فاعليتهم الديمغرافية كانت آخذة بالازدياد ، وجاء تأنيس الحصان ثم الجمل ليزيد من وقع التواصل والتجول والتفاعل ولاسيما تجاه الشمال المشرقي حتى إذا أصبحنا أمام مطلع الألف الأول قبل الميلاد وجدنا أن الفاعلية الآشورية الرافدية قد ساهمت / كعادتها / في محاربة القبائل العربية.

وقد ذكرت نقوش شلما نصر الثالث عن محاربته وانتصاره على تحالف آرامي – عربي – إسرائيلي وكان زعيم القبيلة العربية هو جنديبو وذكرنا سابقاً أن قبيلة هذا الرجل ربما تقع على أطراف البادية الشامية في حين يذكر آخرون أنها تقع في جنوب مملكة دمشق.(**) كما أن شلما نصر الثالث زحف نحو أرض الكلدانيين جنوب الرافدين واستولى عليها وتوغل نحو الجنوب حتى بلغ الخليج العربي ويبدو أنه بلغ الكويت واتصل بذلك بالجزيرة العربية وبقبائل عربية كانت تقيم هناك. ثم وفي عهد تجلات فلاصر الثالث (٥٤٧ –٧٢٧ ق.م) كان ثمة حاكمة عربية على قبيلة قيدار تدعى زبيبة دفعت الجزية لهذا الملك ويبدو أن قيدار تقع في شمال شبه الجزيرة العربية. ثم ترد في وثائق هذا الملك أنه قهر ملكة عربية أخرى اسمها شمسي لأنها حنثت بيمينها وكفرت بالعهد الذي قطعته للإله شمش بألا تتعرض بالسوء للآشوريين.

أيضاً يبدو أن تيماء التي تقع في شمال الجزيرة العربية بموقعها المهم الذي يربط الخط التجاري من الجنوب عبر الحجاز إلى المشرق العربي ومصر ثم موانئ البحر المتوسط قد دفعت الجزية إلى آشور

---

* يشير رونه دوسو إلى أن الشريط الأرضي الذي يشكل الساحل السوري ممتداً من الجنوب إلى الشمال بين البحر المتوسط والبادية السورية بدءاً من البحر الأحمر وحتى جبال طوروس يشكل جزءاً مكملاً لشبه الجزيرة العربية بحيث أن الوحدة الحضارية مميزة إلى حد أننا لا نندهش من تشكل وحدة عرقية على هذه الأرض هي " السامية " !. انظر رونه دوسو– الديانات السورية القديمة – ص٣١.

* يشير محمد عبد المعين خان في كتابه "الأساطير والخرافات عند العرب" إلى أن عرب شبه الجزيرة العربية مهما اختلفوا في البيئة عن الحضر فلهم قابلية وصلاحية للتأثر بما جاءهم من الأمم "السامية" في العقائد وإن أهل الوبر تأثروا بأهل الشمال (المشرق العربي). راجع كتابه ص٢٥ – وزارة الثقافة – سوريا ٢٠٠٧ – الكتاب الشهري ٤٧.

* يرد في النصوص الآشورية لفظة "أربي" بمعنى العربية.وفي النصوص البابلية يرد " ماتو أربيي " Matu-A-re-bi أي أرض العرب. وفي الآرامية بيث عربايا Beth Arabaya

** ثمة تقرير مهم يشير إلى أن جنديبوالعربي شارك في هذه المعركة بألف جمل وهنا يعد ذكر الجمال في المعارك طليعياً حيث لم تسبق الإشارة إليه من قبل في الوثائق . انظر : مرعي – تاريخ بلاد الرافدين ص١١٥. ويتميز الجمل بصفات عديدة فهو يشرب ١٣٠ لتراً من الماء مرة واحدة ويستطيع أن يبقى بدون ماء لمدة سبعة عشر يوماً في جو تبلغ حرارته ٥٧ درجة مئوية ويستطيع أن يحمل أكثر من الحمار ويسير بسرعة أكبر.

دورية إلكترونية. محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

حفاظاً على مصالحها التجارية وورد اسمها في نقوش تجلات فلاصر. وتقدم لنا وثائق شاروكين الثاني الآشوري (٧٢٤ – ٧٠٥ ق.م) أنه في السنة السابعة من حكمه أدّب تمودي Tamudi وقبائل عربية أخرى يبدو أنها كانت تقع في الشمال الغربي من الجزيرة العربية.[٢٢]

والذي يبدو من حركة التاريخ آنذاك أن الفاعلية الآشورية ومنذ القرن التاسع قبل الميلاد جهدت لمدة ثلاثة قرون في إخضاع العرب وتملك الخط التجاري الواصل من الجنوب إلى الشمال والشمال الشرقي ويبدو أنهم حققوا مآربهم.[*]

وكان من جراء ذلك أن الكراهية عمت لدى القبائل العربية للآشوريين وهذا ما جعلها تتحالف مع كل من يناوئ الفاعلية الآشورية سواء من الآراميين أوالكلدانيين. وبالعودة إلى مسلسل الحروب الآشورية ضد العرب وقبائلهم نجد أن سنحاريب سيطر على قبائل عربية تقع في العربية الشمالية وتمكن من إخضاع قبائل عربية في مناطق واسعة من الهلال الخصيب وشمال الجزيرة العربية. وتظهر النصوص الآشورية قيام الآشوريين بعدد من الحملات يزيد عددها على التسع للانتقام من الأعراب الذين كانوا قد تعودوا التحرش بهم ومضايقتهم عند اجتياز البوادي ومهاجمة قوافلهم وحدود إمبراطوريتهم. وتذكر الوثائق أن ملوك الآشوريين في حملاتهم على العرب كانوا يأسرون أصنام العرب ويأخذونها معهم إلى مدنهم.[*]

ويشير ألبير فان دي براندن في كتابه " تاريخ ثمود " إلى أن الازدهار الاقتصادي لبلاد آشور ثم الكلدان كان يرتبط بجزء كبير منه بأمن شمالي الجزيرة العربية ووسطها ذلك أن الطرق التجارية التي تؤدي إلى آشور (بابل فيما بعد) والتي كانت تستخدمها القوافل المحملة بالبخور والثروات من الجنوب كانت تمر عبر هذه المساحات الشاسعة حيث قبائل البدووأشباه البدوالذين يعتبرون الغزووسيلة عيش شرعية".[٢٣]

وقد قدمت نصوص تجلات فلاصر الثالث معلومات قيمة عن تنظيم اجتماعي متطور جداً في ممالك العرب في شمال الجزيرة العربية حيث ذكرت أسماء ملكات عربيات مثل ظبية – شمس العرب. وتذكر النصوص أيضاً أن تيماء وسبأ كانتا من المهزومين. وفي وثائق شاروكين الثاني الآشوري (٧٢١ – ٧٠٥) ق.م يذكر أنه هزم عدداً من القبائل العربية في حملاته على الجزيرة العربية ومن هذه القبائل قبيلة ثمود ويشير إلى أن الثموديين المهزومين نقلوا إلى السامرة. ويبدو أنه كان ثمة وصاية آشورية على العرب على طول الخط التجاري العابر من الرافدين إلى جنوب الجزيرة العربية فقد ذكرت الوثائق عن تدخل الآشوريين بشكل دائم في الشئون الداخلية للعرب وقبائلهم فعندما توفي ملك العرب "حزائيل" نصب الملك الآشوري أسرحدون ابن حزائيل - يطيع - على عرش العرب وحين توفي هذا بسبب مؤامرات تدخل الجيش الآشوري لإعادة النظام. كما وتذكر تدخلات لآشور باني بل في شئون الجزيرة العربية أيضاً.

ويجدر الذكر هنا إلى ؛ أن ثمود كما تشير المرويات قطنت منطقة الحجاز وجوارها أي المنطقة الممتدة من الحجاز وحتى سوريا ويشير بطرس البستاني إلى أن ديار الثموديين امتدت من الحجاز حتى البلاد السورية. أما عن زمن فاعليتهم فيمتد من القرن الثامن قبل الميلاد وحتى القرن الثاني الميلادي ولكن استمر تواجدهم البشري من منتصف القرن الخامس الميلادي أي قبل قرن من ولادة الرسول محمد[*] [٢٤].

وتشير المعطيات إلى أن قبيلة ثمود كانت تقيم في المناطق التي تشكل اليوم جزءاً من المدينة ومكة وذلك في القرن الثامن قبل الميلاد. وهم في الغالب من السكان الأصليين الذين استعاروا اسمهم من معطى الطبيعة ف " ثمد " تعني مجرى الماء الذي يجف في الصيف وفي تلك الفترة كانت ثمود قبيلة بالمعنى الحرفي للكلمة والنصوص الآشورية كانت تستعمل تعبير قبيلة ثمود. ويبدو أنه بعد أن سبا شاروكين الثاني الآشوري قسماً منها إلى السامرة بقي قسم آخر ما لبث أن قام بالارتحال نحوالشمال حيث حصل تواجدهم في القرن السادس قبل الميلاد . ويبدو أنهم تأثروا بحضارة الشعوب المحلية وثقافتها منذ ذلك التاريخ.

الجدير ذكره هنا ؛ أن ملوك آشور وبابل في حروبهم ضد العرب في شبه الجزيرة العربية كانوا يطلقون عليهم اسم "العرب" وذلك بدءاً من القرن التاسع قبل الميلاد وحتى القرن السادس ق.م.[٢٥] يشار هنا إلى أن النقوش الثمودية لم تظهر إلا في القرن الرابع قبل الميلاد ما يدل على أن الثموديين لم يمتلكوا الكتابة وأدواتها وعلمها إلا بعد مرور خمسة قرون تقريباً على تواجدهم.[**] ولتوضيح أهمية خط التجارة الدولي آنذاك بالنسبة للإمبراطورية الآشورية ثم الكلدانية في الألف الأول قبل الميلاد نعرض لطرق التجارة في المنطقة العربية:

فمن الجنوب إلى الشمال:

(١) مخا – صنعاء – مكة – المدينة – مدائن صالح – تيماء – العقبة – البتراء – بصرى – دمشق – حمص – حماة – حلب – كركميش – حران.

(٢) المكلا (حضرموت) – بيشه – الفاو– ليلى – الجرهاء.

(٣) صور – سقط – صحار – ربا – جرها – الكوت – الحيرة – تدمر.

* كان هيرودوتس في كتاباته ينعت سنحاريب الملك الآشوري (٧٠٥ – ٦٨١ ق.م) ب "ملك العرب والآشوريين".

* نقل سنحاريب حسب وثائق ابنه أسرحدون (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م) تماثيل آلهة منطقة الحوف (أداماتو) ومن أسماء هذه الآلهة : دعا – نوخي / ناهي / - ابيريللو! – عطار سمائي – عطار كروما.وقد وردت أسماء بعض هذه الآلهة في النصوص الثمودية. وقد قدمت وثائق هذا الملك أن ملك العرب "حزائيل" جاء إلى نينوى يطلب إعادة الصور الإلهية التي أخذها والد أسرحدون ، وفي بادرة حسن نية من أسرحدون ،فقد زوّج حزائيل من توبوا ابنة اسكالاتو التي كان قد سباها من أداماتو مع أمها الملكة اسكالاتو. انظر تاريخ ثمود – ألبير فان براندن – ص١٩.

* في الوثائق التي تعود إلى القرن الخامس الميلادي ذُكر وجود فرقتين عربيتين في الجيش الروماني الفرقة الأولى تكونت من الفرسان العرب الثموديين وأقامت على الحدود الشمالية الشرقية لمصر والفرقة الثانية في بلاد " إيلليري " وسميت فرقة إيلليري الثمودية وقد تواجدت هذه الفرقة في " بيت شام " في فلسطين في القرن الخامس الميلادي. وقد كان معظم هؤلاء الجنود من وسط الجزيرة العربية. انظر: تاريخ ثمود . ص٢٦

** انظر: العربية لغة وكتابة – د. محمد محفل. كما أشارت المصادر إلى اسم لملك ثمود وهو "جنده" وفي حال صحة هذه المعلومة فإن علينا أن نستنتج أنه كان لثمود تنظيم اجتماعي مشابه للتنظيمات التي تذكرها الوثائق الآشورية عن الجزيرة العربية الشمالية بدءاً من القرن التاسع ق.م. انظر – ألبير فان براندن – تاريخ ثمود ص١٥.

(٤) الفاو— ليلى — نجد — الحيرة — بابل.
ثم طريق البخور ، اليمن — بترا — أفريقيا.(*)
الجرهاء — تدمر — دورا أوروبوس.
ومن الغرب إلى الشمال:
١- صنعاء — مأرب — المكلا — صلالة — صور — مسقط.
٢- صنعاء — مأرب — بيشه — الفاو— سليل — ليلى — بيرين — صحار.
٣- جدة — مكة — الطائف — بيشه — الفاو— هجر — الجرهاء.
٤- مكة — نجد — الأيلة على شط العرب.
٥- المدينة — نجد — بابل.
٦- المدينة — الحيرة — بابل.
٧- تيماء — دومة جندل — الحيرة — بابل.
٨- بيروت — دمشق — تدمر — بابل.
٩- أجاريت — حلب — إيمار — ماري.(٢٦)

إن ذكرنا لطرق التجارة هنا لا يفسر فقط اهتمام الآشوريين ومن بعدهم الكلدانيين بوسط وشمال الجزيرة العربية ، ولكن نستند عليه لتبيان كون أن التجارة والنشاط التجاري هما رافعة لنشر الأفكار والمعتقدات والأديان والمثاقفة بين مختلف الشعوب والأطياف الاجتماعية. ولعل ما نستخلصه من مجالات التفاعل الآشوري — العربي في الألف الأول قبل الميلاد وفق مناحيه المختلفة سلباً عبر الحروب والسيطرة ، وإيجاباً عبر قيم التفاعل التجاري والاقتصادي وغيرها تدفعنا إلى استنتاج أن الفاعلية الآشورية القاسية عسكرياً لم تخلق جوانب للتفاعل مع العرب كما أن القبائل العربية قلبت ظهر المجن للفاعلية الآشورية هذا على عكس الفاعلية الكلدانية التي يُفهم من تفاصيلها أن ثمة تفاعل إيجابي مع العرب وقبائلهم أفضل من الآشوريين حتى ليبدو أن نسق التفاعل الكلداني — الآرامي — العربي كان حاضراً وفاعلاً بقوة في الألف الأول قبل الميلاد بالإضافة إلى نسق التفاعل الإيجابي الآرامي — العربي المعبّر بامتياز عن قيم التفاعل والتأثير والتأثر بين الثقافتين ، وطبعاً الغلبة كانت للآرامية كونها الأقدم والأكثر تعداداً والأسبق حضارة وتمدناً واستقراراً. لكن هذا النسق التفاعلي الآرامي — الكلداني — العربي هو ما سيتضح كلما مضينا باطراد نحو الألفية الأولى الميلادية عبر الخصائص التي توشحت بها الحضارة المشرقية بالإضافة إلى الثقافة العربية الآخذة بالتبلور ولو بنسق بدئي أساسه البعد القبلي — العشائري.

وبالعودة إلى التفاعل الكلداني — العربي فنحن أسلفنا أن الفاعلية البشرية الكلدانية تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد وقد وُثقت في نصوص الملك الآشوري آشور ناصربال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق.م).

*طريق البخور يبدأ من سلسلة من الموانئ على طول الساحل الجنوبي الغربي للجزيرة العربية ومن هذه الموانئ يمتد شمالاً إلى مكة والمدينة ثم معان والبتراء وجرش ودمشق. ومن البتراء يتفرع طريقان إلى أفريقية أحدها يمر خلال سيناء والثاني يسير إلى غزة ومنها إلى أفريقية بحراً. ومن دمشق يتجه الطريق غرباً إلى صور فالبحر المتوسط أويمتد شمالاً إلى حمص وأنطاكية. وفي دمشق وحمص يلتقي بالطريق الآخر الذي يبدأ من الخليج العربي ويصعد في الفرات إلى دورا أوروبوس ثم يتجه غرباً إلى المدن السورية ماراً بواحة تدمر. وتربط بين هذين الطريقين سلسلة من طرق القوافل الفرعية أهمها الطريق الذي يبدأ من واحة نجران ثم يسير في وادي الدواسر إلى الجرهاء وعلى ساحل الإحساء وساحل الخليج العربي.

وسوف ننتظر حوالي ثلاثة قرون إلا نيف حتى تعبّر الفاعلية الكلدانية السياسية عن نفسها عبر مدينة بابل وحران. وإن شهد الحراك التاريخي آنذاك معالم حرب المصالح لاسيما ما يختص بتأمين طرق التجارة الدولية حيث نجد أن نبوخذ نصر قد حارب قبائل عربية شمالي سورية عام ٥٩٩ ق.م(*) فإن الغاية من ذلك كانت تأمين خطوط التجارة وتأكيد الفاعلية الكلدانية السياسية والعسكرية الوارثة للفاعلية الآشورية. ولكن مع اعتلاء نبونيد الكلداني سدة الحكم في بابل عام ٥٥٦ ق.م أصبحنا أمام منعطف جديد في المسار السياسي والتفاعلي للفاعلية الكلدانية فنبونيد كان والده شيخ إحدى القبائل الآرامية أما أمه (التي تأثر بها كثيراً) فقد كانت كاهنة إله القمر — سين في حران الواقعة في الجزيرة السورية العليا.

وتشير الوثائق إلى أنه منذ ارتقائه العرش تلقى في حلمه أمراً من الإله سين / الإله الكبير في بابل / بأن يبني معبداً لعبادة الإله سين (الإله القمر) الهلال — الشهر في حران وهذا ما دفع الكهنة الكهنة في معبد مردوخ أن يناصبوه العداء طيلة فترة حكمه حيث كانت الأولوية لإله القمر على الإله مردوخ.(**) ويشير الدكتور حسن فاضل جواد إلى أن نبونيد كان شديد التأثر بأمه فورث عنها اهتماماً دءوباً في الشئون المعتقدية والعبادة الخاصة (شبه الوحدانية غير الإلهية) للإله الذي خدمته أمه طوال حياتها حتى أنه جعل ابنته كاهنة عليا في معبد الإله سين في أور. وقد أدرك نبونيد أهمية تيماء وموقعها في شمالي الجزيرة العربية حيث كانت مركزاً متميزاً لعبادة إله القمر العربي (تير).(٢٧) بالإضافة إلى ذلك فإن تيماء تشكل مركز تتصالب عنده طرق التجارة القادمة من مأرب مارة بمعين ونجران ويثرب وديدان والحجر ومدائن صالح ومنها يذهب فرع إلى وادي الرافدين وآخر إلى عاصمة الأنباط البتراء وحائل .(***)

والذي يبدو من وثيقة نبونيد أنه هرب بدفع من الإله سين إلى تيماء حيث بقي هناك عشر سنوات ويبدو أنه ذهب وفق حملة عسكرية حيث يخبرنا نقش عثر عليه في حران يعود لنبونيد: "لما ترك بابل وجاء إلى تيماء أخضع أهلها ثم ذهب إلى (ديدان) — باداكو(فدك) — خيبرا (خيبر) — حتى بلغ يتريبو(يثرب = المدينة)"(٢٨) وكذلك يديخو(يديع). ثم تحدث عن صلح مع مصر وميديا والعرب

* كان الملك الكلداني بختنصر (٦٠٤ — ٥٦١ ق.م) قد دخل فلسطين مما جعل هذا الدخول صلة الوصل بين الكلدانيين والعرب.

**جاء في نقش نبونيد: " أنا نبونيد ،ابن وحيد ليس له أحد ،الآلهة والإلهات (الملائكة حسب مفهومنا) صلوا من أجلي وسين (إله القمر) دعاني لاستلام الحكم في الليل جعلني أرى حلماً قال لي ما يلي: " إهو لهُل " (اسم معبد إله القمر في حران) معبد سين في حران شيده بسرعة ، أريد أن أعطيك كل البلاد في يدك . الناس ، سكان بابل وبارسيبا ونيبور وأور وأوروك ولارسا ،الكهنة أناس من مناطق سكن في أكد أخطئوا في حق إلوهيته الكبرى وارتكبوا إثماً في عدم معرفة الغضب المخيف لملك الآلهة نئار (سين) نسوا طقوسهم وتكلموا كذباً وزوراً كالكلاب افترسوا بعضهم. جعلت الآلهة مرضاً وجوعاً ينتشر بينهم.

***يشير د. مرعي إلى أن الطرق القادمة من الغرب ومن الجنوب متجهة إلى الخليج العربي والمؤدية إلى دمشق شمالاً وإلى الحجاز واليمن جنوباً كلها تتصالب في واحة تيماء وقد وصفت النصوص الآشورية العائدة للألف الأول تيماء بأنها مدينة تجارية على طرق القوافل. مرجع سابق — ص٢٠٧

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

Matara.bi.u وقد ختم النقش بما يفهم على أن العرب المذكورين قد أرسلوا إليه الرسل واستسلموا له.

وفي مقاربة لخطوة الملك نبونيد نحو الجزيرة العربية فإن ثمة أمرين مهمين دفعاه لذلك: الأول: كونها مركز مهم لعبادة إله القمر آنذاك خاصة أنه ترعرع وتشرّب من أمه طقوس عبادته. الثاني: هو البعد الاستراتيجي التجاري في تأمين خطوط التجارة حيث أن السيطرة على تلك المنطقة تجعل التجارة الكلدانية تمتلك أقصر طريق برية للتجارة تربط بلاد الشام بالجنوب العربي.

ونحن نميل هنا إلى ؛ أن إقامة نبونيد في تيماء تأخذ بعداً معتقدياً – سيكولوجياً أكثر من الأسباب التجارية ، فالمعلوم تاريخياً ومن استقراء معالم التاريخ أن المحافظة على خطوط التجارة لا تتطلب وجود ملك في المحطة التجارية المستهدفة بل يكفي وجود محمية عسكرية تؤمن الخط التجاري كما أن ما ورد في وثيقته يشير إلى تعبير " جعلني أهرب " أي أن الإله سين دفعه إلى الهرب إلى تيماء. وهذه نقطة ينبغي التوقف عندها. على أن إقامة هذا الملك مع حاشيته ومعتقداته وطقوسه لابد أن تمد بقيم تفاعلية بين عرب الجزيرة العربية وبين الثقافة الكلدانية خصوصاً أن امتداد هذه الفاعلية شمل حتى مدينة يثرب. وهذه خطوة متقدمة في التفاعل بين المشرقيين والعرب في الجزيرة العربية ، فهنا حل المشرقيون على العرب وليس العكس.

والذي يبدو أن انتشار اللغة والكتابة الآرامية عبر هذه الفاعلية الكلدانية قد عبّر عن نفسه في واحة تيماء حيث عثر هناك على أنصاب تحمل كتابات آرامية.[٢٩] وقد عثر أيضاً على كتابة ثمودية تقول "رمح ملك بابل" ربما قصد كاتبها الملك نبونبد في سيطرته على تيماء ومواقع جزيرة العرب. ويشير الدكتور جواد علي إلى أن السنوات العشر التي قضاها الملك الكلداني في الجزيرة العربية أبانت من خلال الوثائق أن يثرب كانت عامرة وقديمة حيث تم إلحاقها بالمملكة الكلدانية.

وكان نبونيد يتنقل مدة عشر سنوات في الجزيرة العربية حيث يراجع أهلها وينزل بين قبائلها ويختلط بهم ثم يعود إلى عاصمته تيماء. ويظهر أنه تطبع خلال إقامته ببعض طباع العرب واقتبس بعض مصطلحاتهم حيث وردت في وثائقه. ويعتقد البعض أن نبونيد جاء بأناس من الرافدين وأسكنهم في المناطق الحجازية وربما أسكن بعض اليهود المسبيين في بابل ، في يثرب والذين أصبحوا يهود يثرب.[٣٠] وقد عثر على مسلة للملك نبونيد في بابل تشابه مسلته في مدينة حران كما في مدينة تيماء. وعام ٥٤٢ ق.م يغادر نبونيد تيماء بعد وصول أخبار عن حشود فارسية حول بابل ، وفي عام ٥٣٩ ق.م في ٢٩ تشرين الأول تسقط بابل بفعل خيانة كهنة مردوخ ويقتل ولي العهد (ابن نبونيد) ويتم القبض على نبونيد.

خاتمة

إذن نصل إلى نتيجة تختص بالنصف الأول قبل الميلاد وهي أن التواجد العربي القبلي والمستقر نوعاً ما عبّر عن نفسه وكان آخذاً بالتطور والحضور تدريجياً إن كان في المشرق العربي أو في الجزيرة العربية. وأن معالم التلاقح والمثاقفة الآرامية – الكلدانية – العربية بدأت تتوضح أكثر مما قبل وهذا ما سوف يؤسس لأرضية ثقافية حضارية جديدة سوف نقطف ثمارها في مراكز حضرية عربية متعددة أساسها التمازج الآرامي – العربي – الكلداني.

الهوامش:

(١) موسكاتي ، الحضارات السامية القديمة ، ص١٧٦.
(٢) كلينغل – هورست ، تاريخ سورية السياسي ، ت: سيف الدين دياب ، دار المتنبي ، دمشق ، ط١ ١٩٩٨ ، ص٢٠٦.
(٣) ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، ص١٠٦.
(٤) بريستد – جيمس ، العصور القديمة ، ص١٥٢.
(٥) المرجع السابق ، ص١٥٩.
(٦) جواد – حسن فاضل ، حكمة الكلدانيين .ج٢ ص٢٧.
(٧) أبوعساف – علي ، الآراميون ، دار الأماني ، سوريا . ط١ ، ص٨٧.
(٨) تيكسيدور – خافيير ، الديانة الآرامية ، موسوعة تاريخ الأديان . ج٢ ص١٣١.
(٩) محفل – محمد ، العربية لغة وكتابة ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، موقع اتحاد الكتاب العرب.
(١٠) المرجع السابق.
(١١) حتي – فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٨٣.
(١٢) أبوعساف – علي ، نشوء الممالك القديمة ، وزارة الثقافة ، سوريا ، ١٩٨٨ – ط١ – ص٥٠٩.
(١٣) جواد – حسن فاضل ، حكمة الكلدانيين ، ج٢.
(١٤) مرعي – عيد ، تاريخ بلاد الرافدين . ص١٢٧.
(١٥) جواد – حسن فاضل ، مرجع سابق ص١٢.
(١٦) كلينغل – هورست ، ص٢٥٩ ، ٢٦٠.
(١٧) توينبي – تاريخ البشرية ص١٣٧.
(١٨) علي – جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . ص٢١٩.
(١٩) دوسو– رونيه ، العرب في سوريا قبل الإسلام ، ت: عبد الحميد الدواخلي ، دار الحداثة ، بيروت ط٢ ١٩٨٥ ، ص٢.
(٢٠) علي – جواد ، مرجع سابق ص١٣ ، ١٤.
(٢١) ولفنسون – مرجع سابق ، ص١٤٥.
(٢٢) علي – جواد ، مرجع سابق ، ص٢٣٦.
(٢٣) براندن – ألبير فان دين ، تاريخ ثمود ، ت: د. نجيب غزاوي ، دار الأبجدية ١٩٩٦ ط١ ص١٧.
(٢٤) المرجع سابق ، ص١٢.
(٢٥) المرجع السابق ، ص٣٨.
(٢٦) قبيسي ، محمد بهجت ، فقه اللهجات العربيات ، دار شمأل ١٩٩٩ ط١ . ص١٧.
(٢٧) جواد – حسن فاضل ، مرجع سابق ص١٤٦ ، ١٤٧.
(٢٨) علي – جواد ، ص٢٤٥.
(٢٩) أبوعساف – علي ، الآراميون ، دار الأماني ، سوريا ١٩٨٨ ط١ ، ص٩٩ ، ١٠١.
(٣٠) علي جواد ، مرجع سابق ص٢٤٩.

الدكتور بشار خليف في سطور:

كاتب وباحث سوري من مواليد دمشق عام ١٩٥٧. له كتابات في القصة القصيرة والشعر ، ودراسات أثرية وتاريخية. عضو إتحاد الكتاب العرب (دمشق) وعضو اتحاد الآثاريين العرب (دمشق). كتب في عدد وافر من الصحف والمجلات العربية المطبوعة والإلكترونية مثل: الحياة اللندنية - مجلة ديوان العرب- مجلة البناء - صباح الخير اللبنانية. صحيفة تشرين السورية - الأبجدية الجديدة- الديار اللبنانية.

دورية إلكترونية. محكّمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449